من أعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

[تابع ما نشر فى العدد الماضى]

وكانت عوامل ثلاثة تتنازع عواطف الشبيبة حينذاك : ماض منقض لم يزل يرتجف ظله على الأطلال حيث توت قوات الأثرة وعصور العنف ، ومستقبل منفرج الأفق بعيد المجال لا يلوح منه غير أوائل ذرات النور ، ومدى بين هذين الحدين أشبه بالمحيط الفاصل بين العالم القديم والعالم الجديد : مدى مضطرب كالبحر الزاخر تتلاعب به العواصف فيهدد بالغرق كل ما يحمل ولا يلوح عليه إلا بعض البواخر الجريئة يجتازه صاخبة من حين الى حين

فى مثل هذه المفاوز كان على أبناء العصر أن يهتدوا : وتلك هى المشاهد التى كانت تنتصب أمام فتيان ملء إهابهم العزم والقوة ، وهم أبناء الامبراطورية وأحفاد الثورة . أما الماضى فما كانوا ليرتضوا به ، وما يتحكم الانسان فى عقيدته ، ولكنهم عشقوا المستقبل عشقاً شبيهاً بشغف بيكماليون عاهل صور القديمة بشبح فاتنة من عالم الجن ، فكان المستقبل فى بصيرتهم كدمية من رخام هاموا بها فباتوا يتوقعون تورد عروقها بدم الحياة . وهكذا لم يكن لهؤلاء الفتيان إلا زمانهم تسوده روح العصر ، ملاك غسق لا ينفصل عن النهار ولا يتصل بالليل ، وقد شهدوا هذا الملاك مقتعداً كومة من العظام متلفعاً برداء أنانيته ، وأعضاؤه ترتجف من لفحات الصقيع

فشعروا بغصة الموت عندما لاح لهم هذا الشبح نصفه مومياء ونصفه جنين ، فاقتربوا منه والروع ملأ قلوبهم كما يقترب السائح من مومياء ابنة أحد أشراف ساركاندان فى ستراسبورغ حيث تعرض محنطة على خطيبها . وما يتمالك من يشاهد هيكل هذه الطفلة من الارتعاش وقد تحلت يدها المتقلصة بخاتم العرس وانتثر رماد رأسها على أزاهر الليمون البيضاء

وكان نابليون بمروره على العالم قد زعزع كل ما فيه ، كالعاصفة تجتاح الغابات فتهز باسقات أدواحها وتغادرها واجمة فى صمت رهيب . وكان الملوك قد شعروا بتيجانهم تميد فمدوا اليها أيديهم فلم تعثر إلا على شعورهم وقد وقفها الذعر على رؤوسهم

وكان بابا رومة قد قطع ثلاثمائة فرسخ ليبارك الامبراطور ويضع التاج على مفرقه ، فلم يتورع هذا الامبراطور من اختطاف التاج من يده

وهكذا كان كل شيء قد ارتعش فى غابة أوربا القديمة المروعة ، وعقب السكون هذه العاصفة الهوجاء

يقال : إذا ما صادف السائر كلباً هائجاً فتابع السير برباطة جأش وبخطوات متزنة دون تردد ، لا يلبث الكلب أن ينبح بهدير مختنق ثم ينصرف ؛ ولكن إذا بدرت من عابر الطريق بادرة تدل على خوفه فأخذ بانتظام خطواته مسرعاً بخطوة واحدة فان الكلب يتأثره مستأسداً ، وإذا ما نشب فيه أنيابه فانه لا يقف حتى يفترسه

لقد رأت أوروبا أكثر من ملك ظهرت منه بادرة الخوف فى ثائرتها أمام شعبه فذهب فريسة لهذا الشعب ، ولكن مثل هذه الكارثة لم تكن تقع على الملوك جملة فى آن واحد ، لذلك سقط الملوك على التتالى ولم تسقط الجلالة الملكية . ولكن أمام نابوليون ارتعشت الجلالة الملكية نفسها ، فبدرت منها البادرة التى تؤدى الى الهلاك . وما ارتعشت جلالة الملك وحدها حينذاك بل ارتعش معها الدين والشرف وكل سلطة إلهية وبشرية

ولما مات نابليون استعادت السلطات الالهية والبشرية روعها ، ولكنها لم تجد فى الشعب من يعتقد بها بعد

إن فى معرفة ما يمكن أن يقع لخطراً ، لأن الفكر يتجاوز الأمكان بافتراضاته ؛ وليس القول بامكان وقوع أمر كالقول إنه وقع فعلا ، وما التأكد إلا أول عضة للكلب المستأسد

لم يكن نابوليون الثانى إلا آخر شرارة من نار الاستبداد ، فقد أعدم الملوك لينسج على منوالهم ففعل بهم ما فعله فولتير بالكتب المقدسة

وسمعت الدنيا بعد ذلك ضجة هائلة ، هى صوت صخرة القديسة هيلانة تسقط على العالم القديم . ولاحت نجمة التفكير فى السماء بأشعتها الباردة كوشاح آلهة الليل فغمرت بها الدنيا كلها الكفن المروع

وكانت أوربا قد رأت من قبل عدداً وفيراً ممن يعتقون الأشراف ويتهددون الكهنة ويتآمرون على الملوك ، ولكنها ما عرفت ابتسامة الاحتقار قبل أن مر الامبراطور وتوارى عن العيان ، فكان إذا اخترق الجمع شريف أو كاهن أو عاهل يهز الفلاحون رؤوسهم متذكرين ما شهدوا من معارك ويقولون : لقد نظرناهم فى غير هذا الزمن وفى غير هذا المكان وقد كانت وجوههم على غير ما نراه اليوم

وإذا ما ذكر أحد العروش والهياكل كانوا يقولون : إنها عوارض من خشب سمرناها نحن ثم اقتلعناها

وحينما كان الخطباء يقولون : لقد رجعت عن غوايتك أيها الشعب ، فدعوت إليك ملوكك وكهنتك ، كان الشعب يجيب قائلاً : « نحن لم ندعهم ، وما دعاهم إلا هؤلاء المتشدقون »

وإذا قيل للشعب : (عد إلى الطاعة والسكون ، افلح الأرض واخضع) كان الشعب ينتفض وتتحرك السيوف فى أغمادها وقد علاها الصدأ فى زوايا الأكواخ

ولكن الخطباء كانوا يضيفون إلى كل هذا قولهم : (عد إلى السكون أيها الشعب فقد أضناك الجهاد بلا جدوى ، ولا تطلب الاعتداء وليس من يعتدى عليك)

فكان الشعب يرتضى بهذا القول ؛ أما الشبيبة فما كانت لترضى به

لاريب فى أن الانسان تتنازعه قوتان مجهولتان

تصليان داخله حربا عواناً إلى آخر حياته ، فاحداهما تبحث وتسبر المستقبل بسكون متحسبة تستنبط أحكامها من العبر ، والأخرى تتحفز للوثوب إلى المستقبل منجذبة إلى ما لا تعلم ؛ وعندما تسود الانسان عاطفته يتبعها العقل منذراً باكياً ؛ وإذ يقف الانسان مجيباً لدعوة العقل ، تهتف الأهواء قائلة : (وأنا هل يجب أن أموت) ؟.

وابتداء الأسى يختمر فى القلوب الفتية ، إذ حكم ملوك الأرض على الشبان بالراحة والسكون وقذفوهم بأشد الأمراض أوجاعاً : بالبطالة والضجر ، فأحسوا باضمحلال الأمواج التى كانوا أعدوا لمصارعتها سواعدهم القوية . وسادت السكنة على هؤلاء المصارعين الذين كانوا مرخوا أعضاءهم عبثاً بالزيوت . فاندفع الأغنياء منهم إلى ميادين الفحشاء ، والمتوسطو الحال وخضعوا للقضاء وتحولوا الى الكهنوت والجندية ، أما الفقراء فلم يجدوا سوى الحماس البارد فارتموا فيه بالأقوال الجوفاء كما يرتمى الجاذف بنفسه فى البحر الذى لا ساحل له : بحر الابتلاء بالجدل بعيداً عن العمل

وعا أن الضعف البشرى يقود الناس الى الاجتماع والتعاون ، لم يلبث هؤلاء الشبان أن اجتمعوا فوجدت السياسة مرعاها الخصب بينهم . وهكذا كانت الشبيبة تخرج من مصارعة حراس المجلس التشريعى لتتجه الى المسارح حيث تشاهد (تالما) لابساً قبعة تشبه قبعة الأمبراطور ، أو تسير الى المدافن لتحتفل عأتم نائب من الأحرار ، لتعود أخيراً الى مساكنها كل مساء شاعرة بفراغ حياتها وعبث محاولاتها

وما كانت حياة المجتمع الداخلية بأقل بؤساً من الحياة الخارجية ، فساد الناس الأسى والجمود ، وتسلط الرياء على العادات ، وأصبح الدين مشوباً بالأفكار الانكليزية فاكتسح الحزن كل ما كان من دلائل المرح القديم

ولعل المنابة كانت تمهد بذلك طرقها الجديدة فظهر الملاك المبشر بالمجتمع المنتظر ملقياً فى قلوب النساء بذور الحرية التى ستطالب المرأة بها فى آتى الزمان

وانشق الرجال عن النساء فى المجتمعات الباريسية : فلبست النساء البياض كالعرائس ، واتشح الرجال بالسواد كالأيتام ؛ وتبادل الفتيان لفتات العداء . وما هذا الثوب الأسود الذى يلبسه رجال عصرنا إلا دليل انقلاب مريع ، لأنهم ما لبسوه قبل أن تساقطت شارات الشرف فتمزقت الأزياء القديمة وتناثرت أزهار الأثواب المزركشة على الحضيض ؛ فكأن الانسان بعد أن تحكم بعقله وهدم ما كان يعتريه من الآمال ، وقف متشحاً بالسواد ليتلقى كلمات التعزية على المفقود . وسادت عادات طلاب العلم وأرباب الفن تطورات نشأت من التطور العام ، بعد أن كانت تلك العادات مجلى الحرية الحقيقية ، ومسرات الشباب النقية . انفصل الرجال عن النساء فاصلت بينهما الاحتقار نصلاً لا شفاء لجراحه . فقد الرجل حب المرأة فاندفع إلى الكؤوس ليستعيض ما فقد ، ونظر الناس إلى الحب نظرهم إلى الدين والمجد فرأوا كل ذلك أوهاماً تلاشت مع الزمان القديم

وغصت المواخير بالرجال ، فأصبحت الفتاة مهملة بعد أن كانت تغذى الشبيبة بحبها الطاهر السامى ، وعند ما احتاجت إلى غذاء ورداء باعت نفسها . فيا للشقاء ويا للعار ! . . لقد أهمل الشاب الفتاة ، وكان فى وسعه أن يستنير وإياها بأشعة شمس الله وأن يقاسمها لقمته مأدومة بعرق جبينه ، ولكنه تركها وسار إلى مزابل الانسانية ليجد هنالك تلك

الفتاة نفسها مثقلة بالهموم شاحبة مضعضعة يجول على فمها الجوع ويرعى قلبها الابتذال

فى ذلك الزمان ظهر شاعران هما أعظم عباقرة العصر بعد نابليون تخصصا حياتهما لجمع ما تبدد فى الأرض من مبادىء الشقاء والآلام ، فكتب جوته عميد الأدب الجديد (آلام ڤرتر) واصفاً الوله الذى يقود الى الانتحار ؛ ثم عاد فرسم فى (فوست) أعظم صورة تمثل الشر والشقاء . واجتاحت كتاباته فرنسا كلها وهو جالس فى بيته تحوطه السعادة وتخدمه الثروة ، فكان يرسل الينا رشاش قلمه الأسود وعلى شفتيه ابتسامة الأب لبنيه . . .

وجاء بيرون من جهته يرفع صوت الحروب والفجائع ، كأنه لم يجد من حل لسر الوجود غير كلمة العدم المروع

عفوا أيها الشاعران العظيمان ! أنتما الآن ذرات رماد يفترش القبور ، أنتما فى عداد أنصاف الآلهة أيها الشاعران ! وما أنا إلا فتى ضعيف تحمل من الحياة ما لم تتحمله أنت من مصائبها وآلامها ، إننى أؤمن بالأمل وأبارك الله

وما هبت زعازع الأفكار الانكليزية والألمانية على رؤوسنا حتى سادنا الاشمئزاز برهة ثم عقبه الاختلاج المريع . لا شىء يحول أملاح العواطف الى بارود منفجر كالتلاعب فى مواطن الشك بالمبادىء السامية . وكان جوته برأسه الجبار قد اعتصر كل ما فى الثمرة المحرمة من خلاصة ، فخيل للناس أن من لم يقرأ جوته لا يعرف من الحياة أشياء . ويل لهؤلاء الناس ! لقد انفجرت أفكاره علامسة أفكار جوته ، فتناثرت ذرات تائهة فى مهاوى الشكوك

وساد الجحود تلك الأزمنة ، فأنكر الناس كل ما على الأرض وكل ما فى السماء . وما الجحود إلا آمال عاثرات تدور بها الأحزان ، فكأن الانسانية كانت قد تراخت عزائمها فدخلت طور الاحتضار ، فانحنى عليها المفكرون يجسون مواضع انباضها ليتحققوا موتها

وكانت شبيبة فرنسا شبيهة بذلك الجندى الذى أجاب من سأله : بم تؤمن ؟ فقال إننى أؤمن بذاتى . فتعجب من يورد هذا السؤال عليها : إننى لا أؤمن بشىء

الواسعة ؟ ألم تلهمك الروح وأنت المتصوف المعتقد بوحدة الوجود ما يعينك على سكب قليل من العسل فى تلك الكؤوس الرائعة التى نحتها للأجيال ، وقد كانت ابتسامة واحدة منك كافية لاستواء النحل فتنزل بجنبها على شفتيك

وأنت يابيرون : ألم تكن عائشا تحت سماء إيطاليا الجميلة ؟ ألم تكن تناجى أمواج الادرياتيك والى جنبك المرأة التى أحببت ؟

أما الذى أوجه اليك هذه الكلمات الآن ، وما أنا إلا فتى ضعيف تحمل من الحياة ما لم تتحمله أنت من مصائبها وآلامها ، إننى أؤمن بالأمل وأبارك الله

وما هبت زعازع الأفكار الانكليزية والألمانية على رؤوسنا حتى سادنا الاشمئزاز برهة ثم عقبه الاختلاج المريع . لا شىء يحول أملاح العواطف الى بارود منفجر كالتلاعب فى مواطن الشك بالمبادىء السامية . وكان جوته برأسه الجبار قد اعتصر كل ما فى الثمرة المحرمة من خلاصة ، فخيل للناس أن من لم يقرأ جوته لا يعرف من الحياة أشياء . ويل لهؤلاء الناس ! لقد انفجرت أفكارهم علامسة أفكار جوته ، فتناثرت ذرات تائهة فى مهاوى الشكوك

وساد الجحود تلك الأزمنة ، فأنكر الناس كل ما على الأرض وكل ما فى السماء . وما الجحود إلا آمال عاثرات تدور بها الأحزان ، فكأن الانسانية كانت قد تراخت عزائمها فدخلت طور الاحتضار ، فانحنى عليها المفكرون يجسون مواضع انباضها ليتحققوا موتها

وكانت شبيبة فرنسا شبيهة بذلك الجندى الذى أجاب من سأله : بم تؤمن ؟ فقال إننى أؤمن بذاتى . فتعجب من يورد هذا السؤال عليها : إننى لا أؤمن بشىء

وانشطر المجتمع الى فئتين : فئة النفوس المضطربة المتوجهة التائقة الى المثل العليا ، فكان أبناؤها يحنون الرأس ويبكون متلفعين بأحلامهم المؤلمة كأنهم مقصبة تمايل على مستنقع من الشقاء . أما الفئة الثانية فكانت مؤلفة من رجال المادة والشهوات يقفون بلا مبالاة على ركام الملاذ ولا هم لهم غير إحصاء الأموال التي حشدتها أطماعهم . وما كان يتصاعد من هذا المجتمع المؤلف من الفريقين سوى زفرة وضحكة : تلك ترسلها الروح ، وهذه يقذفها الجسد . وكانت الروح تقول في زفرتها :

— إن الدين يتداعى ، وهذه سحب السماء أصبحت غيوماً تتساقط أمطاراً . لقد فقدنا الأمل وحرمنا حتى قطعة من الخشب الأسود نرفعها صليباً تمد أيدي الضراعة نحوها . لقد تلفعت نجمة الصبح بالغيوم الكثيفة على مطلع الفجر ، فكان الشفق يقبض عليها ليصدها عن الارتفاع ، وكأنها شمس الشقاء ألقت الثورة عليها براقع الدماء .

لقد فني الحب واضمحلت الأمجاد ، فما أحلك الظلام في هذا الليل المترامي بأطرافه على الأرض ! واسوف ندرك الموت قبل أن يتدارکنا نور الصباح

أما الأجساد فكانت تقول في ضحكتها : — لقد وجد الانسان للتمتع بحواسه ولديه من القطع الصفراء والبيضاء ما يقيس به حق تمتعه بالتكريم . وما الحياة إلا الطعام والشراب والرقاد ؛ أما الملاقات الاجتماعية ، فمنها المودة القائمة على استقراض المال ؛ وقد تجد صديقاً تدفع المواطف به الى هذه التضحية . ومنها صلات القربى وهي نافعة للحصول على الميراث . ومنها الحب ، وما الحب إلا رياضة بدنية . وليست اللذة العقلية إلا نوعاً من الغرور والكبرياء .

وهكذا كان اليأس يتمشى بخطواته الواسعة ذارعاً أرض أوروبا كأنه الطاعون ينتشر من نهر الكانج في آفاق آسيا . وكان شاتوبريان قد قبض على صولجان إمارة الشعر ، فألقى اليأس رداء أسفاره ورفعه كالصنم على هيكل تتعالى حوله عبقات البخور فانحنت شبيبة فرنسا على قواها المكبونة بائسة تتكرع كأس الآلام حتى الثمالة ، وملأت الأقطار نفثات الأقلام المضللة بأدب لا لون له ، فكأنه رشاش من دم آسن يرسل اتغذية مسوخ الحياة

ومن له أن يصف ما كانت عليه المدارس في ذلك الزمان؟ لقد كان الشك يسود الرجال ؛ أما الشبيبة فقد كانت اجتازت مرحلة الشك واستقرت على الجحود . وكان الشعراء يتغنون بالخيبة وعثرات الآمال . وكان الشبان يتركون مقاعد المدارس ويواجهون الحياة بحياة تطفح بالبشر وعلى أسلتهم امنة الكذب . وكان الطبع الفرنسي المائل إلى المرح يثيل الأدمغة مناعة تحتمل الأفكار الانكليزية والألمانية ؛ غير أن القلوب لم تكن منيعة لتحتمل النضال في الأوجاع فذبلت وانحنت على ذاتها كأنها أزاهر مقصوفة

وهكذا اتجه مبدأ الموت إلى الاحشاء متسربا اليها بهدوء من الأدمغة ، فأنكرنا الخير بعد أن كنا نؤمن بالشر ، وبلغ اليأس مرحلته الأخيرة فاستقر على الشعور الميت . وجلس ابناء الخامسة عشرة تحت ظلال الأشجار الزهرة يتجاذبون من الأحاديث ما يهز أشجار فرساي الهرمة

طوبى لن لم تدركهم هذه الأزمنة فنزلو الى الهاوية وهم يتطلعون الى السماء ! إن من حالات الحياة ما يصدع القلوب بالشقاء فلا تجد هذه القلوب ما يفرج كربها إلا ارسال اللعنات والتجديف

وقف ملحد أمام السماء وقبض على ساعته متحدياً صاعقة الموت ، وقد منح ربه مهلة ربع ساعة ، وبات ينتظر . إنها لفترة ملؤها أشد غضب وأفظع

لذة ، إنها لفحة بدايتها تناهى اليأس تحنك بقوات السماء . وهل كان ذلك الرجل إلا محلوقاً شقياً يتململ تحت الأرجل التى تركله ؟ وهل كان صوته إلا نداء هائلاً تدفع به المحن والآلام ؟ من يدرى ؟ لعل هذا التحدى الموجه إلى السماء كان فى عين من ينفذ الى خفايا القلوب نوعاً من الصلاة ...

وما كانت الشبيبة إلا كهذا الجاحد تفتح لقواها المكبوته منافذ الفرج باليأس . إن من لا يجد أمامه ما يشغل به قواه ليتخذ تسلية له من التجديف فيتهكم على الدين والمجد والحب وعلى كل ما فى العالم ، تلك الوسيلة هى السبيل الذى يتبعه الانسان ليخادع نفسه فيتهكم عليها وهو يجدف على كل شىء

يلذ للمرء أن يضع نفسه فى مصاف الأشقياء حين يحكمه الضجر فيندفع الى الفحشاء لأنها أول ما تخطر على بال العاطلين ، وهى الآلة التى تتلمسها الأعصاب الهائجة لتشد بها على نفسها تسكيناً لاختلاجها

وكان الأغنياء يقولون : لا حقيقة إلا بالثروة وأما ما سواها فأحلام . فلنتمتع بالثروة ولنمت

وكان متوسطو الحال يقولون : لا حقيقة إلا بالسلوان ، وأما ما بقى فأحلام . فلنسل ولنمت . أما الفقراء فكانوا يقولون : لا حقيقة إلا فى العذاب ، وأما ما سواه فأحلام ، فلنجدف ولنمت

إنه لوصف مريع قد يحسبه البعض مبالغة ، وما أنا إذ أورده مندفع بالعداء للانسانية ، فهو وصف للواقع ، وهذا هو البرهان

كل من طالع التاريخ وسبر غور الأسباب التى أدت الى سقوط أمبراطورية روما ، لا بد له أن يرى ما انبعث عن المسيحيين من قوات دمرتها تدميراً . فان العظمة التى تجلت فى هؤلاء المؤمنين أيام جهادهم ومحنتهم كانت قد استحالت الى ضربات قاضيات عند ما صارت القوة الى أيديهم

قال مونتسكيو : « لا يسعنى وأنا أفكر بحالة الشعب وهو رازح تحت استبداد الكهنوت اليونانى إلا أن يخطر ببالى أولئك العبدان الذين أتى هرودوت على ذكرهم ، وهم من كانوا يمخضون اللبن لاستخراج زبدته ، وكان أسيادهم يقتلعون أعينهم كيلا يتلهوا بالمشاهد عن متابعة العمل دون انقطاع . وهكذا كان الكهنة فى روما يمنعون النور عن كل مبصر ، فلم يكن يقرر القيام بحرب أو عقد هدنة أو قرض أو الاتيان بأى عمل دون أن ينظر الرهبنة فيه أولاً ، إن القلم ليكل دون وصف الأضرار التى نتجت عن هذه الأعمال »

على أن مونتسكيو كان يوسعه أن يتم كلامه قائلاً :

(إذا كانت المسيحية قد هدمت العروش ، فانها أحيت الشعوب . إذا كانت قد فتحت للبربر أبواب القسطنطينية ، فانها قد فتحت أيضاً أبواب الأكواخ باسم المسيح . وما كان بالأمر الضرورى أن تحتفظ روما بمجدها التداعى وهى المومياء المحنطة بعطر نيرون والمكفنة بوشاح نيباريوس وقد رعى أحشاءها دود الفساد

إنما عمل المسيحية ، أيها السياسيون ، كان يتجه « إلى إدخال السلام على قلوب الفقراء اليائسين ، وإلى إخراج الأمل من أحشاء المومياء الفاسدة قوة حية تعضد كل مظلوم ، وذلك ما قامت به المسيحية على أنقاض روما ، ولكن ماذا فعل خلفاء هادمى روما بعد مرور السنين ؟ إنهم لبثوا ينظرون إلى الفقير برهقه الغنى ، وإلى القوى يستبد بالضعيف ، ويسمعونه يقول : (إن الأقوياء سيسحقوننى على الأرض ، غير أننى سأقف فى وجوههم عند ما سيحاولون دخول السماء فاشكوهم إلى الله)

هكذا صبر هؤلاء المؤمنون فيما مضى ، ولكن أعداء المسيح وقفوا وصاحوا بالفقير قائلين : إنك صابر تتوقع ظهور العدل ، والعدل لا وجود له . إنك تنتظر البعث لتخلص من الظلم فى الخلود وليس من خلود . أنت تدخر دموع أطفالك ونواح امرأتك لتحملها إلى أقدام عرش الله بعد موتك ، وما بعد الموت من حياة ، فان الله غير موجود)

وعند ما سمع الفقير هـذا جفف أجفانه وقال لامرأته أن تكف عن النواح ، ونادى بأولاده ليقف معهم على الحرق البالية كالثور الهائج ، وصرخ فى وجه الغنى قائلا :

(ما أنت إلا رجل أيها الظالم .)

ثم التفت إلى الكاهن ، وقال له : « لقد كذبت أيها المعزى »

وهذا ما كان يقصده أعداء المسيح ، ولعلهم حسبوا أنهم يسعدون الفقير بإرساله على سبيل المطالبة بالحرية

ولكن إذا فهم هـذا البائس أن الأغنياء يسلبونه حقه وأن الكهنة يتاجرون بجهله ، إذا ما عرف أن للناس حقاً واحداً فى الحياة وأن الفقر هو الكفر بعينه ، فان إعانه لينحصر حينئذ بقوة ساعده فيهتف قائلا : لأصلين الأغنياء حرباً عواناً . إن اللذات للجميع على السواء ، إن الأرض لى أنا أيضاً ما دامت السماء خاوية خالية

أيها المفكرون الذين تقودون الفقير الى هذا الموقف ، أية كلمة تدخرونها لشقائه إذا هو اقتحم المعترك فسقط مغلوباً على أمره ؟

لقد يكون حبكم للانسانية المعذبة قد أهاب بكم الى المناداة بهذه المبادىء ، ولقد يجىء بكم يوم يباركم الناس فيه ، أما اليوم فلا يسعنا أن نرسل البركة إليكم

لقد كان الغنى يقول للفقير فيما مضى : لى الأرض ، فيجيبه الفقير : أما أنا فلى السماء . فبأية كلمة سيجيب الفقير الغنى الآن ؟

ان علل هذا العصر كلها قد نشأت عن سببين ، فان الشعب الذى مر على نورتى سنة ١٧٩٣ و١٨١٤ قد خرج منهما بجرحين . كل ما كان قد زال ، وكل ما سيكون ليس كائناً بعد . هذان هما السببان ، فمن العبث أن نفتش عن ثالث لهما

ما حالنا الا حال رجـــل تداعى مسكنه الى الحضيض وقد بعثر أنقاضه ليقوم ببناء جديد . شمر الرجل عن ساعد الجد وبدأ العمل وهو منتظر ورود الحجارة البيضاء الجديدة لرفع البناء ، ولكن قيل له ان الحجارة البيضاء الجديدة بعيدة المنال ، فعليه أن يصلح الحجارة السوداء القديمة . وسطا الذهول على هذا العامل الذى لا يريد أن يرفع بيته بمواد أخلقها الدهر وموهتها الأيام بالسواد ، ولكن ما العمل والمحجر عميق ولا أدوات لديه لاستخراج الحجارة منه

وقف المتفرجون حوله وقالوا له : استخرج الحجارة من حين الى حين واشتغل على مهل

وتكاثرت النصائح تبـذل لهذا الرجل وهو واقف تحت سماء الله . لقد تهدم بيته القديم ولا بيت جديد له ، فهو عرضة للحر والقر ، لا يعلم أين يعمل وأين يرتاح وأين يأكل وأين ينام وأين يحيا وأين يموت ، وهو متعب مضطرب ، وأطفاله يبكون فى امرأتهم فى العراء

ومَن أشبه بهذا الرجل منا ؟

أى بنى القرون المقبلة ! إنكم ستنحنون فى زمانكم على المحاريث تمزق أحشاء الأرض فتبتسم